د . محمد أبو ريده

تعليق على بحث الدكتور النويهي حول ((الدين وازمة التطور))

بسم الله الرحمن الرحيم

في هذه الندوة التي تضم ممثلين « لمختلف المواقف الدينية والفكرية والاجتماعية » يحاول السيد الزميل الاستاذ الدكتور النويهي ، على حد تعبيره ، البحث عن « الارض المشتركة التي يمكن ان يقف عليها اكبر عدد ممكن من مفكري العرب ، في محاولة مخلصة لاتخاذ الدين قوة دافعة الى التطور الرشيد ، بدلا من ان يكون عبئا ثقيلا يقعد بامتنا في حالة جمود ، بله كونه قوة مضادة تتنكس بها الرجعية » .

والاستاذ يقصد بالرجعية ما يعتقده باخلاص عدد غير قليل من الكتاب العرب من ان ماضينا بأوضاعه وقيمه كان خيرا من حاضرنا ، وانه لا فلاح لنا الا بالعودة اليه ، ثم هو يحدد موقفه بأنه « من الساعين الى التطوير او التغيير وضد الداعين الى العودة او الاعادة»، يقينا منه بان الرجوع الى الماضي او ارجاع ظروفه مستحيل ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى لان هذا الرجوع لو كان ممكنا لكان ضارا .

هذا هو مدخل الاستاذ الى الارض المشتركة التي يمكن ان يقف عليها اكبر عدد من مفكري العرب ، ويرى ان الذين لا يوافقونه عليه لن ينفعهم كلامه ولن ينفعه الجدال معهم شيئا ، لعدم توفر حد ادنى من الاتفاق .

واني ، استجابة مني لطلب التعليق على بحث الاستاذ الزميل ، وتوخيا لتحقيق الغاية المنشودة ، وهي اتاحة مجال للرقي الفكري والتطور الحضاري في الوطن العربي ، على نحو يزيل العوائق ويؤدي الى حل المشكلات ، ارى انه لا حاجة الى الدخول في جدال ممكن كثير حول التفاصيل في كلامه ، لان الهدف واحد ، وهو الرغبة في التغلب على ازمة التطور الحضاري للامة العربية من حيث ان دين الغالبية فيها هو الاسلام ، واعتقد انه لن يكون في هذا المجال خلاف بين اهل الاديان جميعا ، لان حرية العقيدة مكفولة لهم ، والمصالح الحضارية في جانبها العملي واحدة .

واني لأومن كل الايمان بما يقصد اليه الاستاذ الزميل من ان يكون الدين « قوة دافعة الى التطور الرشيد » ، واحب في الوقت نفسه ان اذكر ان الدين والتدين من اقدم الظاهرات الاجتماعية ، وان الدين قد ادى دوره دائما كوجهة نظر في الكون وفي تنظيم امور الحياة ، وسيظل دائما عاملا كبيرا في حياة البشر ، مهما بدا من تقصيرهم فيه او اعراضهم عن مظاهر الحياة الدينية . وان تجاهله سيؤدي بلا شك الى انواع من الحيرة والضياع واليأس نرى علاماتها في الحياة الحديثة ، لان الدين ، وخصوصا الدين المنزل ، يرمي الى اعلاء حياة الانسان وتوسيع حدودها الى ما قبل وما بعد ، وفتح آفاق الامل للتغلب على ضيق الحياة والامها ، ومساعدة البشر من طريق المبادىء الخلقية على ان يحيوا حياة طيبة ، لا كما يتخيل الدين او يتهمه الناظرون الى النظم والشكليات الدينية الحائدة عن غايات الدين او البعيدة عنها .

ومن المعلوم انه قد كان هناك دين وتدين عند شعوب بدائية ، وكان هناك قديما وحديثا دين وتدين فلسفي ، هو ما يسمى التدين الطبيعي او الديانة العقلية . لكن هناك اديان منزلة ، وهي اديان الوحي الالهي الملزمة للبشر بالاتباع وبانهم بمقتضاها مسؤولون عن حياتهم ، والكلام في هذه الندوة عن هذه الاديان التي قد اصبحت بحسب ظهورها والعمل بها على مر العصور نظما كاملة متماسكة البناء متداخلة مع نظم الفكر والحياة .

والدين ، المنزل ، بوجه عام ، تكون له اصوله الاولى الاعتقادية ويكون له مبادئه في تدبير امور الحياة العملية والعلاقات والمعاملات بين الناس ، لكن يختلط بها ، من طريق محاولة الفهم والتفصيل والتفسير والتطبيق ، تفكير البشر بحسب ثقافتهم ونزعاتهم الفكرية الخاصة ، وربما بحسب امزجتهم ومآربهم الشخصية وميولهم واهوائهم وتعصباتهم ، ويتراكم ذلك على مر العصور ويصطبغ بصبغتها في رقيها الفكري وتقدمها وازدهارها ، او في جمودها وركودها ، مما يقتضي في مراحل النهضة او التحول الحضاري المعنوي والمادي مراجعة للتراث الديني وبحثا متجددا لمعرفة الاصول الاولى المتينة والمبادىء العامة التي وضعها الحكيم الخبير والاسترشاد بها في مواجهة المواقف والمشكلات المتجددة .

ونحن المسلمين نؤمن ، في بساطة وايمان وصدق ، بأن الاسلام خاتمة الديانات المنزلة ، وهو مصدق لما بين يديه منها ومكمل لها ، وبأنه ، بحكم انه لا دين بعده ، قد تضمن الاصول الكبرى والمبادىء الرئيسية التي يمكن ان يقوم عليها ، على نحو مباشر او غير مباشر وبفضل اجتهاد الانسان ، نظام الفكر والحياة ، ومن المعلوم ان الدين المنزل ، وان كان يبين ويحدد في بعض التفاصيل ، فانه يكتفي في كثير من الاحيان بالمبادىء الكلية والاصول الرئيسية ، لتكون اساسا للاستنباط والتطبيق ، وهذا هو فهم الفيلسوف الاسلامي الكبير ، ابن سينا ، فهو يرى ان اصول الحكمة النظرية والعملية تؤخذ من الشريعة الالهية ، والعقل الانساني يفصل ويبرهن ويطبق المبادىء في الجزئيات.

هذا مع ايماننا الراسخ بأن الاسلام دين عقل وعلم ودليل وبرهان، وانه جاء لبيان الحق والخير والارشاد الى صلاح امور الحياة في هذه الدنيا والى طريق الفوز في الحياة التي بعدها .

فما هو موقفنا ؟

ان المنطق يقتضي منا ـ اذا كنا صادقين مع انفسنا ـ ان نكون في طريقة تفكيرنا وتكوين وجهات نظرنا فيما نعتقد وفي تدبير امور حياتنا على تنوع جوانبها ، على وفاق مع ما نؤمن به .

لكن الحياة تتطور من حولنا ، والعلوم تزداد وتتغير باستمرار ، وعمران الدنيا الذي اراده الخالق الحكيم على يد الانسان ينمو كل يوم ، بفضل استخدام الانسان لقوى الطبيعة التي جعلها الله مسخرة لخدمة الحياة الانسانية ، وبذلك تتعقد امور الفكر وامور الحياة ، ويجد الانسان في تفكيره وتصوراته ، وفي وعيه وعواطفه ، وفي ميوله ورغباته ولذاته ، ما لا يدخل تحت الحصر من امور : بين حق وباطل وخير وشر ، وخطأ وصواب ، وضار ونافع . فماذا يفعل الانسان في مجال تفكيره وتكوين وجهة نظره في الآلة والكون ، وفي نفسه هو وفي علاقته بغيره ، في مجال القيم الخلقية ومعاني الاشياء وغاياتها ؟ ماذا يفعل في سلوكه الشخصي والاجتماعي ؟ .

اننا عندما ننظر في تاريخنا الطويل الاعتقادي والفكري والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والحضاري بوجه عام ، نجد انفسنا امام ثروة هائلة من التراث : من علوم للعقائد تؤلف جملة منسقة من علوم فلسفية ، وقانون في غاية النمو ، هو عبارة عن علوم شريعة في درجة عالية من الرقي ، وفلسفة جديرة بأن تحتل مكانها بين فلسفات الامم الكبرى ، واخلاق اجتماعية تنظم العلاقات بين الناس وتفكير سياسي، بالاختصار نجد امامنا تراثا حضاريا كبيرا .

وهذا التراث لم ينشأ ولم يتكون بسرعة ولا بسهولة ، لان الاسلام عرف علوم الامم وفلسفاتها وحكمتها وعاداتها ، وعانى مواجهة ازمات التطور وفي اثناء ذلك مر بتجارب كبيرة ، وعرف مراحل حاسمة ومآزق من التحول الحضاري ، فعالجها وخرج بتراث جديد متجدد ، مع المحافظة على اصوله وروحه ومفهوماته الرئيسية حول المسائل الكبرى في الفكر والحياة . وقد ابرز الاستاذ النويهي في بحثه ثمرات هذا المجهود الديني والفكري والحضاري في قرون ازدهار الحياة الاسلامية .

والآن يجد الاسلام نفسه امام تجربة كبرى معقدة ، بسبب كثرة المذاهب الفكرية واختلافها وتضارب الآراء في كل شيء ، وبسبب تعدد النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، فضلا عن التقدم الهائل في العلوم وتطبيقاتها وما ينشأ عن ذلك من مشكلات ، فكيف نتصرف ؟

اننا في تاريخنا الطويل وفي مراحل التطور الحضاري نلاحظ ان المسلمين لم يفقدوا التمسك بالاصول في حياتهم الاعتقادية والعملية، ولم ينكصوا عن مواجهة المذاهب والنظم المخالفة وتناولها بالدراسة والفهم والنقد والاختيار على نور وبصيرة ، وبذلك طوروا افكارهم وجددوا نظم حياتهم وقدموا لانفسهم ولغيرهم نماذج تحتذى .

واني لا اريد من كل ما ذكرت تنبيه السادة المشتركين في هذه الندوة الى ما هو معروف لهم ، وانما اريد التمهيد لتعليق موجز على بحث الاستاذ الزميل . وكما اشرت من قبل ، لا اريد المناقشة في التفاصيل ، لان النقاش فيها قد يكون طبيعيا بل طريفا ، لكنه ليس دائما مفيدا ونحن الى العمل وبيان المنهج الموصل للغاية المنشودة احوج منا الى ترف القول .

واول ما احب ان انوه به هو اعتقادي صدق النية في الاصلاح لدى الاستاذ الزميل ، ولذلك فاني احب ان ابحث معه عن « الارض المشتركة » التي يتلمسها ويحب ان يقف عليها اكبر عدد ممكن من مفكري العرب ، لكي يجعلوا من الدين قوة دافعة للتطور الرشيد .

وابتديء بما هو ايجابي في كلامه .

ولدى قراءة بحثه لاحظت ان من اهم ما يؤكده فكرة هي ان الاسلام دين نظر عقلي ، وانه من اول امره دين اجتهاد ومراعاة للمصلحة ، وان التشريع الاسلامي تشريع متطور على اساس « الطبيعة الديناميكية النامية المستمرة التطور للشريعة الاسلامية » ، كما يقول ، واننا فيما يختص باحكام الفروع في حياتنا وفي معاملاتنا ، اذا اضفنا او غيرنا، بعد البحث العميق وبحسب ما يقتضيه تغير الاحوال ، فاننا ، كما يؤكد ، « لا نكون قد خرجنا على الاسلام ، بل على العكس تماما نكون قد استجبنا لروحه السمحة ونفذنا مبادئه الخالدة في تحقيق مصلحة الامة والاقتراب من المثل العليا في العدل والمساواة ، والتعاطف والتراحم ، والرغد والسعادة ، والعزة والكرامة ، والامن والسلام ، لكل افراد المجتمع ذكورا واناثا » . وعلى هذا الاساس اتسع التشريع في الفروع وانتفع المسلمون بثمرات التجارب الحضارية عند الامم ـ هذا ما يؤكده الاستاذ الزميل .

ومما لا شك فيه ان طبيعة التشريع الاسلامي سمحت بذلك ، لكن على اساس من المبادىء والمثل الاسلامية العليا التي تضمنها الدين واكدها القرآن والسنة .

ولا يمكن ان يماري احد في الحاجة الشديدة الى الاجتهاد في تجديد كثير من فروع التشريع الاسلامي ، تحقيقا لصلاح احوال الناس في عالم يتطور ويتقدم من حولهم وللمعاونة على نهضة حضارية، واذن يتحتم فتح باب الاجتهاد والاستعداد له بعدته من العلم الواسع العميق ، والامانة والاخلاص ، والحرص على مصلحة البشر وسعادتهم الحقيقية .

لكن هذا لن يتحقق بالاماني والارتجال والدراسة السطحية او التقليد ، وانما يجب على من يريد اصلاح احوال المسلمين ان يحترم الواقع ، فيعنى اولا بدراسة التراث الديني دراسة جادة واستخلاص مبادئه واستخراج كنوز التجربة التشريعية ومعرفة آراء فحول العلماء الذين وقفوا حياتهم على التفكير والبحث في هذا الميدان .

وقد بدأت بين المسلمين بالفعل بوادر الدراسة وبدايات الاجتهاد، وظهرت انواع من التنظيم لبحث المشكلات وابداء الرأي فيها ، فضلا عن النشاط في الفتوى في كل البلاد ، على المستوى الرسمي والشعبي، لكن ذلك كله غير كاف ويحتاج الى مزيد من التعمق في الدراسة بناحيتيها الخاصة والمقارنة .

غير ان الاستاذ الزميل يدعو الى حملة على الفكر التقليدي ، هدفها ، كما يقول ، « ان تقنع الناس بوجوب الاخذ بالنظرة العلمانية الخالصة في كل ما يختص بأمور معاشهم ودنياهم ، وهو يريد لهذه النظرة ان تشمل كل شيء عدا مسائل العقيدة والعبادة ، ويدعي ان الاسلام لا يتنافى مع النظرة العلمانية وان موقفه من امور الدنيا موقف علماني صرف .

هنا موضع الخلاف مع الاستاذ ، فلا اعتقد ان احدا يؤمن بدين منزل يعتقد انه حق ، يقر الاستاذ على ما يريد او يوافقه على ما يزعم من ان موقف الاسلام من امور الدنيا موقف علماني ، اذا عرفنا ان هذه الحياة الدنيا ، بحسب الاسلام ، تكليف الهي ، معه ارشاد الهي ، وان معنى هذه الحياة وقيمتها وكل ما يعمله الانسان فيها يرتبط بغايات عليا حكيمة ، اعني بالخطة الآلهية الشاملة لكل شيء ويرتبط بمسؤولية الانسان عن حياته وسلوكه وكل ما يفعله ويطلبه ويسعى اليه . نعم ، ان الاسلام يحترم الحياة الدنيا وواجب عمران الارض على يد الانسان باعتباره خليفة عن الله فيها ، وان هذا العمران امانة عهد الله بها الى الانسان ورسالة القاها على كاهله ، وهو يحترم العقل والضمير وما لهما من حظ في شؤون الفكر والحياة ، لكن الاسلام يبين لذلك اصولا ومبادىء مطلقة ومعايير ثابتة ، وهو ايضا يحافظ على الانسان من نفسه ، من ظنونه واهوائه ، ويحوطه بكل ما يكفل سلامة كرامته وصون كيانه المعنوي والمادي ، على اساس من العلم

الحق بطبيعته وما يصلح امره ويساعده على النهوض برسالته التي جوهرها معرفة الحق وافاضة الخير والحكم بالعدل وتحقيق ذلك النموذج الرائع الذي نصت عليه الديانات المنزلة ، من ان الله خلق الانسان على صورته ، بمعنى انه حامل لنفحة الهية وصفات واستعدادات عالية فائضة عليه من مصدر كل حق وخير وكمال .

ولذلك فانه يتحتم على كل من يتصدى لامور الانسان ان يحتاط ويتحرى عند توجيهه ، لكي يساعد هذا الكائن النبيل على تحقيق ذاته واداء رسالته والوصول الى كماله وسعادته .

ولقد كان الاخذ ببعض التشريعات الغربية منذ منتصف القرن الماضي ، كما لاحظ الاستاذ الزميل ، نتيجة للجمود التشريعي عند المسلمين ، يضاف الى ذلك انه كان نتيجة لظروف حضارية وغيرها لا مجال هنا للكلام فيها .

والآن يقف اهل الدين امام المجال لما يدعو اليه الاستاذ من ضرورة التجديد على اساس مما يؤمنون به .

والسؤال هو : اذا اردنا العلمانية الصرفة ، ففي اي شيء وما هو المعيار للكمال والخير والسعادة وكل ما ننشده للانسان من مصلحة؟ ان امامنا التجربة العلمانية في الغرب ، واني لاسأل سؤالا بسيطا ، واحب ان يجيب عنه كل من السادة الحاضرين باخلاص بينه وبين نفسه : هل ادى التشريع العلماني في الغرب وتنظيم امور الحياة والمعاش على الطريقة العلمانية الى صلاح حال الانسان في نفسه ، في كيانه الشخصي الخلقي ، وفي علاقاته بغيره في دوائرها الخاصة المحدودة ودوائرها الاوسع ، وفي مسؤولياته عن اعماله ، وهل ادى التشريع العلماني في الحقيقة والواقع الى انسان افضل والى اسعاد الفرد والمجموع ؟ .

اني لا اشك لحظة في ان الاستاذ الزميل بعيد كل البعد عن ان يقصد العلمانية المطلقة بكل مبادئها ونتائجها ، ومن هناك يتحتم علينا ان نقيد ما نريد ، فنربط اجتهادنا في تجديد بعض تفاصيل التشريع لمواجهة مشكلات تطورنا الحضاري ، ان نربطه بالاصول الاسلامية التي ابرزها الاستاذ في اكثر من موضع من بحثه .

على اننا يجب ان نلاحظ ان في التشريع الاسلامي عناصر محددة بنصوص ملزمة لا مجال فيها للاجتهاد ، وهي من وضع الحكيم العليم ، والاخلاص يقتضي العمل بها بكل فهم وذكاء واجتهاد وعلى منهاج الشريعة واسسها ، من رفع الحرج ودفع الضرر ورعاية المصلحة ، وبحسب مقاصدها ، من تربية الفرد واصلاح المجتمع وتحقيق السلام والعدل ، ولا يصح ان يحسن البشر الظن بحكمتهم المحدودة فيخطر لهم التدخل في تلك الامور ، والله احكم منهم وادرى بما يصلح عباده ، وحتى اذا لم نستطع ، لامر او آخر ، تطبيق تلك التشريعات النصية فانها صحيحة في ذاتها ولنحرص على تقديرها .

وفي هذه المناسبة لا بد من التنبيه الى نقطة هامة ، وهي ان التقصير او القصور في الاجتهاد التشريعي بين اهل الاديان المنزلة لمواجهة كثير من مشكلات الحياة هو الذي يجعل الناس يحسون بازمات التطور الحضاري ويظنون ان في التشريعات الغربية علاجا ناجحا لما يشتكون منه . وهذا وهم خطر جدا ، بالاضافة الى ان كثيرا من جوانب الازمة اما ناشيء عن انحلال عام في الحضارة الحديثة بسبب كثير من الهراء في الفن الزائف والادب الرخيص ، واما مفتعل مصدره تشويشات فكرية وآراء زائفة ونظم لم تمحصها التجربة ولم يثبت صلاحيتها تمحيص القرون .

ونقطة اخرى جديرة بالانتباه ، وهي ان التشريع وحده ، مهما كان ، لا يكفي لاصلاح احوال البشر، ولا بد ان يقترن بدعوة اخلاقية على اساس اقتناع كاف بان التشريع تضمنه الحكمة العليا ، وعلى اساس تربية الوازع الخلقي والايمان بقيمة مطلقة للخير والفضيلة ، وكل ذلك لا وجود له في التشريعات العلمانية الحديثة ، على حين انه من مميزات التشريع الاسلامي ، فان هذا التشريع ، الى جانب استناده في اصوله العامة الى الحكمة الالهية وارادة الخير والمصلحة للبشر ، يهتم بتنمية الضمير الخلقي والشعور برقابة الخالق الحكيم ، كما يقترن بترسيخ الشعور بالمسؤولية والجزاء في هذه الحياة وما بعدها.

نعم ، قد يصل افراد بفضل الحكمة الانسانية والشعور بواجبات الخير والفضيلة والكمال الانساني الى سيرة فاضلة كاملة ، لكنها تكون كانها معلقة في الهواء ، ويعوزها السند ، كما لاحظ اجلة الفلاسفة . والمقصود هو اصلاح حال الكافة كافراد وكجماعة ، وهنا يتحتم التشريع على اسس اخلاقية كما يتحتم اسلوب في التربية المتكاملة ، وهذا لم يتوفر الا في الدين .

ثم انه لا بد من السؤال عن روح التشريع المنشود وعن مدى الحرية فيه وعن الاعتبارات التي سيراعيها ، ان هذا ليس بالامر السهل .

ونحن نلاحظ في التشريعات الحديثة جوانب هازلة ، لا تراعي كرامة الانسان وطبيعته العقلية الروحانية التي لم يدركها ويحترمها الا الدين الحق والفلسفة الحقة ، وكثير من التشريعات الحديثة تنحدر بالآدمي وتتغاضى عن الجرائم الخلقية وعن الضرر والفساد في الارض .

وهناك فرق كل الفرق بين الاجتهاد في التشريع الديني ، على علم وبحسب مثل عليا ، وبين الاستهانة بالامور والحكم بالهوى والمزاج الشخصي وانواع الحساسية ، فضلا عن الانسياق وراء التقليد دون مراعاة المبادىء السليمة واعتبار للفوارق بين الامم في طرق التفكير والاحساس وفي الظروف والاحوال التي يجب ان يتفطن لها المشرع الحكيم .

المقصود من هذا كله هو اني بكل بساطة احب التنبيه الى ما يجدر بان يتفطن اليه كل مثقف عربي يشعر بمسؤوليته في امته ويحرص على توجيهها من ان الدين الاسلامي دين متين البناء من النواحي الاعتقادية النظرية والعملية التشريعية والخلقية ، وفيه تجربة عقلية ضخمة ، وهو ممتزج بالعلم والفلسفة والنظريات الاخلاقية وكل نظام القيم . والاسلام ، هو والاديان الاخرى ، يواجه الآن الموقف الذي ابرزه الاستاذ الزميل ، مع الفوارق التي ابرزها هو بين الاديان .

وهناك بوادر حقيقية لنهضة فكرية وتشريعية في الدين ولدراسات اكاديمية في جوانب من الشريعة ومن كبار المشرعين المجددين في العالم العربي ، كالمرحوم الاستاذ الدكتور السنهوري ، من يشعر بالمرارة من ذلك الاحتلال الاجنبي لمجال التشريع ، ويطمح الى التحرر منه والى تطوير الفقه الاسلامي ، بقصد اشتقاق قانون يصلح للعصر الحديث . وكانت تلوح امامهم فكرة ((قانون مدني)) مشتق من الشريعة الاسلامية، يكون قانونا واحدا للبلاد العربية ، عاملا من عوامل وحدتها ورمزا لهذه الوحدة .

لكن الجهود في هذا المجال لا تزال متفرقة ، وكثير منها مجهود افراد او جماعات محدودة . وفي الاحوال كلها لا تتوفر الظروف للعمل الذي نحتاج اليه .

وعلى هذا فاني من هذا المكان ، وامام هذا الجمع من مثقفي العرب ، مفكريهم وعلمائهم وكتابهم الحريصين على نهضة امتهم ، اتوجه ، الى رعاة هذه الندوة واصحاب الفكرة التي ادت الى عقدها، بالاقتراحين التاليين :

اولا : اتخاذ الخطوات للدعوة الى عقد مؤتمر دولي يجتمع لمدة كافية ، ويدعى اليه كبار علماء الشريعة المسلمين من عرب وغير عرب ،

كما يدعى اليه المتخصصون في التشريع الاسلامي من غير المسلمين ، لالقاء دراسات علمية خاصة ومقارنة حو ذلك التشريع ، طبقا لخطة مرسومة ، توطئة لامكان تجديد كثير من فروع التشريع الاسلامي وفتح الطريق امام تطوير يلائم النهضة الحضارية العربية على الاسس السليمة التي قررها الاسلام وعاشت على هداها امة كبيرة قرونا متطاولة .

ثانيا : وفي سبيل مواصلة التجديد لوجهة النظر الفكرية في امور الدين اقترح عمل الترتيبات للدعوة الى عقد مؤتمر لعلماء اصول العقائد الاسلامية ، من العرب وغير العرب ، لالقاء دراسات حول بيان العقائد بالادلة العقلية العلمية والفلسفية ، على صورة تتفق مع التطور العلمي والفلسفي ، لكي يتهيأ المجال للنهوض بواجب يوازي ما نهض به مفكرو الاسلام ايام ذاع الاتصال بعلوم الامم وفلسفاتها ونظمها في قرون الحركة الفكرية الاسلامية الزاهرة التي نشأت في اثنائها علوم العقائد وتطورت في الفترة التي امتدت حتى القرن الثامن الهجري .

ان للدين ، الى جانب الفلسفة ، اكبر الفضل على الانسانية ، وللاديان المنزلة التي يؤمن بها معظم البشر فضل كل الفضل في ترقية الانسان في حياته وسلوكه ، رغم ما قد يؤخذ على القائمين بأمر الدين في بعض العصور من تقصير او قصور ، قد لا يكون لهم من الذنب فيه اكثر مما لعصرهم وظروفه وحضارته .

والايمان بالله قوة خلقية هائلة ، يجب ان ينتفع بها كل من يريد خدمة الانسانية من طريق الدين .

ونحن في الوطن العربي اصحاب تراث ديني ضخم وميول دينية قوية . ونحن نلاحظ نهضة للفكر الديني ، ولا شك ان تجديد الحياة الدينية من نواحيها العديدة يزيد الامة العربية قوة على الحياة وعلى التقدم الحضاري .

اما اهمال امور الدين ، او التشويش عليه ، باثارة الشكوك والشبه حوله ، خصوصا في موضوعات خارجة عن نطاق النظر العقلي وخصوصا اذا كانت اثارة الشكوك ناتجة عن انحياز لمذاهب ونزعات وتصورات ، هي في ذاتها موضع شك ، فان ذلك ، بدلا من ان يؤدي الى الاصلاح المنشود ، يدخل في كيان الامة عناصر الضياع الفكري والضعف الخلقي ، وهو بما يؤدي اليه من ارتباك وتمزق يعوق العمل البناء في وقت نحتاج فيه الى جمع الهمة والعمل .

واني لا اشك في ان الاستاذ الزميل يوافقني في ذلك وانكم بتفكيركم الثاقب ومعرفتكم باساليب التفكير والاحساس عند امتكم تدركون كيف يمكن تنشيط طاقاتها وتوجيهها نحو العمل .

ان التجديد الروحي والخلقي على اسس سليمة ، هو الذي يخلص الامم من العقد ويطلق طاقاتها لتؤدي دورها في بناء الحضارة .

وهناك نقط كثيرة احب ان اشير اليها .

لكني ، وقد اقتصرت على المشكلة الكبرى في رأي الاستاذ الزميل ، افضل عدم الدخول في التفاصيل ، واكتفي بان يسمح لي بان الاحظ انه وضع بعض المسائل على صورة حادة او وصف بعض الامور وصفا متطرفا او بالغ في حملته احيانا ، مع تعريض هو في غنى عنه ، مما قد يدعو قارئه في بعض المواضع الى الظن بأن عبارته توهم خلاف مقصوده .

لكن لا بد من الاشارة الى نقط قليلة لا اعتقد انه يوجد حولها خلاف ، ومنها :

١ ـ ان العلم الحديث يؤيد الايمان بصانع قادر حكيم ، على خلاف ما يؤخذ من كلام الاستاذ الزميل ، والقرآن يعظم العلم ويعتد به ، ويقرر ان اشاراته لا يعقلها الا العلماء وان آياته تتجلى امام اذهانهم ، ولا يمكن ان يوافق الاستاذ الزميل احد على ما قاله حول كتاب « الله » للمرحوم الاستاذ العقاد .

٢ ـ ان الكتاب والسنة عند المسلمين ، بما تضمناه من اصول وفروع ، كانا وما يزالان مصدرين للتشريع في نظر المشرع المسلم ، اما بحسب النص ، او بحسب ما يستنبط منه او يقاس عليه ، او بحسب المبادىء الاساسية التي اشتمل عليها الكتاب والسنة .

ولا يمكن ان يخطر لبشر متزن يشعر بالمسئولية الخلقية ان يضع نفسه فوق البشر ليشرع لهم من عند نفسه وبحسب فهم يخترعها او افكار تعسفية ، وكل من تصدى للتشريع الجاد للبشر ، قد اجتهد في ان يستند الى فكرة احترام الانسان ومبادىء المحبة والبر والعدل والمصلحة ، وهذا بكل بساطة هو ما تقرره الاديان المنزلة ويلائم فطرة الناس وطبائع الاشياء .

٣ ـ ان التفسير الرمزي للدين يجب ان يقيد تقييدا شديدا ، ولا بد من الاكتفاء بالتفسير المجازي في بعض المواضع التي تدعو الى ذلك ، ولا يمكن ان يقبل مسلم تطبيق طريقة نقد النصوص المقدسة في الغرب على القرآن ، نظرا للفوارق المعروفة عند العلماء بين الطرفين ، وقد اشار اليها الاستاذ الزميل .

٤ ـ وقد يلاحظ قارىء بحث الاستاذ انه ترك بعض المفهومات دون تحديد او ذكر اراء غير صحيحة من غير ان ينبه الى ذلك تنبيها كافيا ، او اشار ، فيما يتعلق بالقرآن ، الى موضوعات يحتاج الكلام فيها الى تدقيق .

ان الكلام عن الاسلام والقرآن يحتاج الى نظر عميق وتثبت ، وكثير من الشبهات التي اثيرت حولهما لم تكن في الحقيقة نتيجة دراسة عميقة عادلة ، لا من جانب العدو ولا من جانب النقاد العرب المحدثين .

على ان المهم هو الاخلاص وصدق النية في الاصلاح لدى الاستاذ الزميل ، وهذا ما اكدت اعتقادي به في اول كلامي .

واني ، في كل ما قلته او لاحظته ، انما ادخل في الموضوع على سبيل من يحاول ابداء الراي ببساطة واخلاص ، واتمنى ان يكون من بين الحاضرين من يشترك في المناقشة ويمثل وجهة نظر الدين، فانا اتكلم كمؤمن بسيط ، رغم اني مشارك في حياة الفكر ومشتغل بتدريس الفلسفة .

ان الحاجة ماسة الى تجديد فكري وخلقي ، تبرز معه ،شخصية مستقلة متميزة بذاتها ، وكان للامة العربية ، على مر العصور ، دور كبير في بناء الحضارة وتطويرها ، على نحو يحفظ اصول حياتها الروحية والخلقية ويمكنها من الابتكار في مجال التمدن والعلم والفلسفة والفن .

وكل الامم تحرص على ذاتيتها الخاصة ، وهذا يشد ازرها في التقدم الحضاري ، وكل ما نحتاج اليه هو التقدم العلمي والصناعي والتكنولوجي ، وليس في حياتنا الروحية ما يعوق العمل في هذا المجال .

ان التطور والتطوير ، في كل نواحي حياتنا حاصلان بالفعل، وهما يسيران على نحو طبيعي هادىء ، والتدخل العنيف في هذا المجرى لن يؤدي الا الى الفشل والعثار .

ونحن نرجو ان يتم التطور والرقي في امور حياتنا على النحو السديد ، تحقيقا لامالنا كأمة كبيرة لها طاقاتها وامامها رسالتها الخالدة .